التراث

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ للنشر - الجمهورية العراقية

المجلد الحادي عشر - العدد الرابع - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

٤

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء المدن مكة

الرحالة الفرنسي اوليفييه يصف بغـــداد عام ١٧٩١م

تقديم وترجمة

د . يوسف حبي

تقـديم

قـام الرحـــالة الفرنســـي اوليفييـــه G.A. Olivier بايعـاز من الحكومة الفرنسية ، بجولة تفقدية في الامبراطورية العثمانية قبل حوالي مائتي عام ؛ فزار الموصل وبغداد والبصرة وغيرها من مدن العراق سنة ١٧٩١م ؛ وسجل انطباعاته في مجلدين ، احببنا ان ننقل هنا عدة فصول بشان الحالة الاجتماعية والجغرافية والتاريخية لمدينة بغـداد ، واضعين لذلك عناوين صغيرة تسـهل قراءتهـا . والرحلة رغم اهميتهـا ما تـزال غـير مترجمة الى العربية ، لذا عكفنا على ذلك منـــذ زمن ؛ آملين ان نفرغ قريبا من نقل القسم الخاص بالعراق ، فننشره في مجلد خاص ، نظرا لما في هذه المذكرات من فوائد . وقد تجنبنا هنا اثقال المادة بهوامش ، فاكتفينا بالضروري منها فقط .

موقـع بغـداد

تقع بغداد في سـهل ، على الضفة اليمنى من دجلـة ، بدرجـة ٣٣ و ٢٠ دقيقـة من الارتفـاع الشـمالي . هذا وفق مشاهدات العرب ونيبور(١)، بينما يضع بوشامب(٢) هذه المدينة دقيقة اخرى اكثر الى الجنوب . ويبدو بان الذي رسم خططها، قد عين لها اقل من الفي خطوة هندسـية طولا ، واقل من الف عرضا . غير ان المدينة لا تقتصر على هذه المساحة .

نشاهد اليوم على الضفة الغربية ضاحيـة مكتظة بالسكان ، تمتد باتجاه الشـمال الغـربي . ولا تنتهي الا بخرائب مايظن انها بغداد القديمة .

الخندق والسور

والمدينة محاطة بخنـدق واسـع وعميق ، تحرسـه اسوار من طابوق ، عالية جدا ، وجيـدة الصيانة . وهـذا السور المشـيد على الطريقـة المسماة بالفارسية سميك جـدا في الاسفل ، ثم يضيق في الاتجاهين الصاعدين ، كما انه مثقوب بكوى صغيرة تمكن (الجنود) من اطلاق النار على العدو الذي يدنو منه . وللغـرض عينـه ، كمـا لحمـاية الخنـدق ، ثمة عـدد كبير مـن الابراج المتقاربة ، بعضـها اكبر من الآخر ، وتنتهي بسـطح وضع عليه مدفعان او ثلاثة .

ولا يستمر السور بامتداد النهـر ، كما في معظم المدن التركية ، لان البيوت مبنية حتى حافة الماء .

ويقوم سراي الباشا في زاوية المدينة الغربيـة او الغربيـة ، وهو واسع المساحة بسبب تعـدد ساحاته وسكنى الحرس الغفير العدد فيه الذي يحرس المدينة .

ويرى فيها ايضا ، الى جهة النهر ، ما يشبه القلعة لا تصلح الا لخزن الاسلحة والبارود .

وثمة مسـافة من الارض كبيرة ، تقع بـين السـور والبيوت ، الى الشرق والجنوب ، لم نفقه

---

(١) كارستن نيبور Carsten Niebhur عالم دانمركي قام برحلة الى بلاد الشرق ، فزار العـراق سـنة ١٧٦٥ ، وسجل مذكرات نقلها الى العربية د . محمود حسـين الامين تحت عنوان : رحلة نيبور الى العراق في القـرن الثامن عشر (بغداد ١٩٦٥) .

(٢) بوشامب Beauchamps رحالة فرنسي زار العـراق عام ١٧٨٣ واسهب في وصف مدينة بغداد .

عنها شيئا لدى تحدثنا عن امتداد المدينة ، لان امتداد الاسوار اكثر من الفين طولا ، واكثر من الف عرضا .

الابواب والجسر

كان لبغداد سابقا اربعة ابواب من جهة الحقول ، لم يبق منها اليوم سوى ثلاثة . لان السلطان مراد (الرابع) الذي استولى على المدينة في عهد الفرس ، دخل من الباب الجنوبي الشرقي ، فاوعز ببنائه لكي لا يدخل احد منه بعده . وليس للمدينة الا باب واحد من طرف دجلة ، يقود الى جسر قوارب لا يسحبونه الا ابان الفيضانات الكبرى . وهو مكون عادة من ثلاثين قاربا مربوطة بسلسلة قوية ، يزاد عددها بمقدار ارتفاع المياه . وبما انها غير مثبتة بمرساة ، تلقى الجسر ينكسر ، فيجرف التيار القوارب متى كان الفيضان شديدا وفجائيا ، او لدى هبوب ريح شمالية او شمالية شرقية ، بل حتى ان كانت المياه عالية وعصف الرياح شديدا من الجنوب الى الجنوب الشرقي ، فانها تحرك المياه حينذاك بقوة .

حادثة انكسار الجسر

لقد سكنا لدى عودتنا من بلاد فارس في بيت مطل على دجلة (في بغداد) . وانكسر الجسر في شهر جرمنال(٢) بسبب فيضان فجائي . وكانت الريح آنذاك باتجاه الجنوب ، والحرارة مرتفعة نوعا ما . وقد كانت الريح باتجاه الغرب خلال الايام السابقة ، ومن المحتمل انها سببت امطارا قوية في المجرى الاعلى للنهر ، اما في بغداد فقد سقط القليل منها .

وساعة تكسّر السلاسل وانجراف القوارب، كان ثمة قارب يقطع النهر ، فانقلب وفيه عشرة او اثنا عشر اعرابيا ، انقذوا انفسهم سباحة . ومن بينهم امراة كانت تمسك بين ذراعيها طفل ابن سنة .

ولعل المفاجاة والحركة واهتزاز القارب وهيجانه ، بل قانون الطبيعة الذي يحملنا رغم ارادتنا وقبل اي تفكير على ابعاد الخطر عنا ، وشجعنا على الخروج منه ، كل ذلك جعل هذه المراة تقارع بشكل غير ارادي (المياه والامواج) ، فتندفع نحو الضفة . ثم كان الحنان الامومي ، لدا رايناها تعود فورا ، تقارع الامواج طويلا ، باحثة عن طفلها في جميع الاتجاهات . وحالما لمحته ، ضاعفت مجهودها ، وتمكنت من امساكه بيد واحدة ، وتخليصه سابحة بالاخرى . وجاء بعض الاعراب لاقاذها ، غير ان الرضى الذي اختبرته في داخلها كان يسند قواها ويجعل مساعدتهم دون جدوى . لذلك لم تقبل ان تعهد بكنزها لاحد ، وحسنا فعلت ، فهل كان بوسعها ان تقتنع بانه سيكون في مأمن وهو في اياد اخرى اكثر مما بين يديها ؟

الضاحية

ليست الضاحية محصنة كالمدينة ، لكنها محاطة بخندق صغير وسور بسيط يحيطانها بضمان ضد اية هجمة من قبل الاعراب . وقد شيد الباشا الذي يحكم اليوم بعض الابراج ، وضع فيها مدفعا .

البيوت

وكما يبدو فان هذه المدينة (بغداد) ليست كبيرة وآهلة بالسكان كحلب . وليست البيوت عالية ولا مبنية بشكل متين ، ومظهرها عادة بسيط من الخارج ، مع قليل من الشبابيك ، وليس فيها سوى طابقين . وهي مرتبة كلها تقريبا على شكل مربع ، حول فناء صغير مزروعة فيه نبقة او نبقتان ، ونخلتان او ثلاث .

ولبيوت الاغنياء فناء ثان يستخدم كحديقة، ومجموعة سكنية ثانية مخصصة للنساء ، يقيم فيها الحريم ، ولا يستطيع اي رجل الدخول الا اذا كان السيد او الرئيس الذي بيده المفاتيح ، وفي هذا القسم من البيت بخاصة لا يفتحون اي شباك مطل على الطريق .

ومن بين غرف النوم المجموعة السكنية الاولى والثانية تلقى غرفة في الطابق الاول اكثر اتساعا من الغرف الاخرى ، وهي مفتوحة تماما الى جهة الشمال او الشمال الشرقي ، ومفروشة للجلوس ، لانها قاعة الجلوس (الديوان) ، فيها يقضون قسما من النهار في جميع المواسم .

اما في الصيف ، فمنذ الساعة الحادية عشرة صباحا وحتى غروب الشمس ، ينزلون الى السرداب . وهو نوع من قبو واسع ، مقبب جيدا،

---

(٢) شهر Germinal هو الشهر السابع من شهور الجمهورية الفرنسية ، يبدا في ٢١ او ٢٢ اذار وينتهي في ١٩ او ٢٠ نيسان .

ومزين نوعا ما ، مدفون عمق اربعة او خمسة اقدام تحت الارض . لا يحس المرء الا بدرجة ٢٥ او ٢٦ مئوية ؛ بينما تصل حرارة الغرف الى ٣٤ او ٣٥ مئوية . ولهذه السراديب هوائية تصل ؛ كما بالنسبة لمداخننا ، الى الجزء الاعلى من البيت ؛ وتسمح للهواء بان يتجدد ، فيتجدد هكذا مساء وصباحا بفضل شبابيك صغيرة .

الاسواق

لبغداد مظهر مشرقي اكثر منه مظهر مدينة تركية(٤) ، اذ فيها عدد كبير من الاسواق والمتاجر المخصصة للتجار والعمال . (والاسواق) بمثابة الطرق الرئيسة للمدينة ؛ تضفي عليها زينتها الاجمل ؛ وهي مسقفة بشكل جيد ؛ كما انها واسعة ومرتبة جيدا . السقف عال جدا ؛ ومشيد بالطابوق . وقد وضعت فيه نتحات تعطي ضياء كافيا ؛ كانه وضوح النهار ؛ كما يتمنى تجار كل البلاد . والدكاكين مرصوفة على الجانبين ؛ فيها يجلس التجار ويبسطون بضائعهم .

يصل المرء الى داخل الدكان عبر ممجاز عرضه قدمان او ثلاثة ؛ بحيث يبقى للسابلة وسط السوق عشرة او اثنا عشر وحتى الخمسة عشر قدما .

تغلق الدكاكين ليلا ، ويوسع التاجر ان يذهب الى النوم وهو مطمئن البال في مكان آخر دون ان يخشى السرقة ؛ حتى ولو كان باب دكانه غير موصد بشكل جيد ، او ترك فيه بضائع ثمينة جدا .

اما باقي اقسام المدينة فقذرة وموحلة في الشتاء ؛ بينما تعج بالتراب صيفا . الازقة ضيقة واقل مكتظة من الاسواق . وحين يريد السكان التنقل مسافات بعيدة ؛ سواء على الاقدام ام على الجياد ؛ فان الحظ يحالفهم عبر الاسواق ؛ اذ انهم يكونون فيها في حمى من الشمس والرياح والمطر ؛ والمناخ اقل حرارة بكثير مما هو في الازقة؛ كما ان العين تكون مقرورة بسبب تنوع البضائع المعروضة .

(٤) يقع الرحالة في خطا كان وما يزال شائعا مفاده ان الريازة المعمارية في العراق الاثري المتاخر «فارسية» او «تركية» ، والحال انها قديمة اصيلة ، عنها اخذ الفرس والاتراك ، كما نستدل عليه بوضوح من الار وادي الرافدين القديمة .

تاسيس بغداد

تاسست هذه المدينة سنة ١٤٥ هجرية ؛ اي سنة ٧٦٢ للميلاد ، من قبل ابي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني . فان المنصور لم يحب ان يبقى في الكوفة بسبب المشاكل الدينية(٥) . لذا قر رايه على تاسيس مدينة جديدة يجعل منها مقرا للخلافة . وبهذه النية حول مخيمه ثلاثين فرسخا الى الشمال من الكوفة على الضفة الغربية من دجلة وشيد مدينة بالمواد التي زودته بها بابل وساليق وطيسفون . وصرف اكثر من اربعة ملايين قطعة ذهب لهذا المشروع الذي نجح وفق رغائبه ، لان عددا كبيرا من الاشخاص هرعوا من شتى انحاء العراق وسوريا وجميع بلاد ما بين النهرين وفارس لكي يقيموا في المدينة الجديدة التي كانت تقدم لهم كل المزايا الحسنة ؛ من موقع لطيف ، ومناخ طيب ، وارض خصبة . وقد سماها المنصور مدينة او بيت السلام(٦) . الا ان اسم بغداد الذي كان يطلق على الموضع غلب عليها وحفظ دونما تغيير حتى ايامنا .

وبعد زمن قصير افضى المخيم الذي اقامه المهدي ابن المنصور على الضفة اليمنى (من دجلة) مدينة ثانية سميت الرصافة ، عرفت ، كالمدينة الاخرى ، اتساعا ذا بال منذ احاطتها بسور للصمود في وجه الفرس وهجماتهم .

وكان للخليفة قصر في كل من هاتين المدينتين اللتين ما لبثتا ان شكلتا مدينة واحدة ، فلم تعرف الا باسم واحد .

مجد بغداد

لم نجم بغداد خلال خمسة قرون بشكل لم تبلغه اية مدينة من مدن الامبراطورية العثمانية . فلا دمشق التي كانت المقر الاعتيادي للخلفاء الامويين ، ولا القاهرة التي حاول السودانيون وخلفاء مصر ان يزيدوا اهاليها ويجملوها ، ولا فارس حيث وضع فيها سلاطنة الاتراك كرسي امبراطوريتهم في البداية ، ولا القسطنطينية (اسطنبول) نفسها رغم موقعها البديع وبنائها ولطف مناخها ، ولا اية مدينة تابعة لشريعة القرآن

(٥) ينسب الرحالة هذه المشاكل الى العلويين .
(٦) يخطا اوليفييه فيكتبها بشكلين : دار السلام ودار السلام .

(الكريم) كانت مزدهرة وغنية وآهلة بالسكان وتجارية كما كانت عليه بغداد ايام الخلفاء العباسيين ؛ فقد كان من نصيبها ان ترث بابل ومسالق وطيسفون ، وغدت فترة من الزمن مركزا للتجارة بين الشرق والغرب ، وعاصمة من اعظم عواصم الامبراطوريات التي قامت حتى عهد ذاك .

يقول المؤرخون العرب انها كانت تزدان بقصور منيفة ، وجوامع فخمة ، وخانات واسعة ، وعدد كبير من الحمامات العمومية . وكانت المحلات التجارية تقدم كل ما تنتجه الهند وافريقيا وآسيا مما هو غني ونفيس ، وكل ما في اوربا من منتوجات مفيدة . غير ان هذه الاشراقة ما عتمت ان اختفت فجاة وذلك عام ٦٥٦هـ في عهد الخليفة المستعصم بالله .

نكبة بغداد

حط التتر المغول بغتة على بغداد بقيادة هولاكو خان ، حفيد جنكيز خان ، وذلك بالاتفاق مع الوزير والي بغداد ، فضربوا الجيش الضعيف الذي كان الخليفة يقابلهم به ، ودخلوا المدينة ، وارتكبوا خلال اربعين يوما كل المنكرات التي ينساق اليها دوما اي عسكر غير نظامي وجاهل وهمجي .

تبصر كيف يعبر عن ذلك كاتب عربي ؛ هو ابن يوسف الحنبلي في كتابه تاريخ الخلفاء والسلاطين الذين تولوا مصر ، واني احتفظ خطيا بالاصل والترجمة . وسيان من خلال تعابيره المتطرفة الى اي درجة كانت بغداد قد بلغت زخما من السكان وترف حياة . يقول :

« لقد كان الخليفة المستعصم بالله ضعيف الروح ، وكثيرا ما كان سلوكه ملوما . وقد حكم سبع عشرة سنة ، حتى قتله التتر . فرات بغداد آنذاك اهراق دماء مليوني شخص من سكانها ؛ وخربت بيوتها وجوامعها ؛ والقيت الكتب المقدسة في دجلة . لقد كان لهذه المدينة يومذاك اثنا عشر الف خان ضمن اسوارها ، واثنا عشر الف رحى ، واربعة وعشرون الف سوق ، وستون الف حمام ، واربعة وعشرون الف مدرسة ، ومائة الف جامع ، من بينها مسجد الرصافة الشهير الذي كان يتسع لمائة الف رجل . وقد كان يقتضي ثلاثة ايام وثلاث ليال للتطواف حول اسوار هذه المدينة ، كما كان عرض الاسوار كبيرا بحيث ان ستين فارسا يمكنهم السير على الواجهة »(٧) .

وبقيت بغداد تحت حكم المغول حتى سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٢م) ؛ ثم استولى عليها تيمور لنك للمرة الاولى في عهد السلطان احمد(٨) ؛ ثم سنة ٨٢٣هـ للمرة الثانية في عهد السلطان عينه الذي كان قد دخلها ؛ لكن تيمور لنك سلمها اليه ، فاحتفظ بها احمد حتى طرده ميران شاه بن تيمور لنك . وانتزعها التركماني قره ـ يوسف من يد ابي بكر بن ميران شاه ؛ واحتفظ بها لنفسه ولخلفائه حتى سيطر عليها حسن ـ اوزون عام ٨٧٥هـ (١٤٧٠م) ؛ وهو امير تركماني آخر . وتولى امراء هذه العائلة بغداد حتى سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨م) حتى انتزعها منهم اسماعيل باشا ملك فارس . وتقدم الاتراك بقيادة سليمان الاول حتى وصلوا بغداد سنة ٩٤١هـ (١٤٣٥م) واستولوا عليها دونما معارضة ، الا ان الشاه عباس ملك فارس اخذها من الاتراك سنة ١٦١٦ ، فجاء مراد الرابع لمنازلته شخصيا عام ١٦٢٨ واخذها بعد حصار ستة وثلاثين يوما ، وشنق اكثر من ثلاثين الف فارسي كانوا قد القوا السلاح بعد موت زعيمهم ، مع انه وعدهم رسميا بانه لن يمس حياتهم ولا حريتهم باذى .

آثار بغداد

حين دمر التتر بغداد كانت تقع على ضفتي النهر ، غير انه منذ عهد ذاك تحول مركز الثقل الى مصر ، ولم تعد بغداد تتحمل الا قسما قليلا من سكانها السابقين ؛ ولم يعد في الامكان تشخيص الجزء الغربي منها ، بينما اصبح الجزء الآخر محصورا ضمن مسافة ضيقة . واستعادت هذه المدينة بعض عزها في عهد متاخر ؛ لانها كانت محطة تجارة تربط فارس بسوريا وبابل واقسام من الجزيرة العربية . كما ان بغداد كانت مركز اتصال بين فارس ومكة (المكرمة) . وعبر بغداد ايضا كان يمر الفرس الوافدين لزيارة ضريحي علي والحسين (رضي الله عنهما) . الا ان هذه المدينة منذ وقوعها تحت حكم العثمانيين ، ولاسيما منذ ان شنق (السلطان) مراد ثلاثين الف فارسي،

---

(٧) قمنا بترجمة هذا النص عن الفرنسية حفاظا على ما كان بين يدي الرحالة .

(٨) انه جلابر او الجلائري . تولى الحكم في بغداد ثلاثا ما بين سنة ١٣٨٢ و ١٤١٠م .

وفرض ضرائب باهظة على جميع السكان ، تبخر سكانها بسرعة ، ولم تبق بغداد لفترة طويلة سوى ناحية كبيرة شبه مقفرة . فلم يلق فيها تافرنييه سنة ١٦٥٢ سوى خمسة عشر الف شخص ، رغم اننا نرى بان امتدادها يشبه ما هي عليه اليوم ؛ وذلك من خلال الخارطة التي يعطيها(٩) .

كانت بغداد تمتد ايام العباسيين حتى الامام موسى (الكاظم) من جهة ، وحتى الامام الاعظم من الجهة الاخرى . وما نزال نرى قرب الاسوار الحالية باتجاه جسر القوارب مدرسة قد تحولت الى خان ، مشيدة منذ سنة ٦٣٠ هجرية ، كما نشاهد جامعا مبنيا سنة ٦٣٣هـ . والمدرسة والجامع مشيدان كلاهما من قبل الخليفة المستنصر بالله ، ٣٢ و ٣٦ سنة قبل غزو بغداد وتدميرها من قبل التتر . وفي الضاحية الواقعة غربي النهر ، نرى كذلك خرائب وبناية نقرأ عليها كتابة عربية متضررة جدا تحمل التاريخ ٥٣٤هـ . وفي الجانب عينه ، وعلى بعد اربع او ست عشرة باردة(١٠) من دجلة ، نشاهد برجا صغيرا وضع عليه عام ٢١٦هـ جثمان (الست) زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد . كما اننا نشاهد قبورا اخرى مختلفة يبدو انها كانت محصورة كلها ضمن أسوار بغداد القديمة . وبعد ، فان الحفريات التي تجري في هذه الارض لاستخراج الطابوق ومواد اخرى للبناء ، تشهد بالكفاية بان المدينة القديمة كانت تمتد في هذا الاتجاه الى حد ميلين من النهر ، وبامتداد ثلاثة او اربعة اميال .

لقد قرأ السيد نيبور على باب المدينة الذي بني حائطا ، كتابة يبدو منها بان الخليفة الناصر قد اكمل بناءه سنة ٦١٨هـ ، ويعني ذلك بانه لم يكن لبغداد ، قبل خرابها ، العرض الذي نلقاه اليوم في هذا الاتجاه . ولكن ، بما ان الاسوار هي اشد حداثة في قسمها الاعلى ، فبوسع المدينة كما قلنا ان تمتد اكثر على طول النهر وتستمر حتى الامام الاعظم ، بحيث تبلغ تقريبا سبعة آلاف باردة(١٠) .

(٩) تافرنييه G.B. Tavernie رحالة فرنسي، قام برحلة الى العراق عام ١٦٤٤ ، وقد نقل ذلك الاستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عواد تحت عنوان : العراق في القرن السابع عشر ، بغداد ١٩٤١ .

(١٠) جاء في الاصل استعمال مقياس يسمى Toise وهو قياس قديم مقداره ستة اقدام ، فضلنا استعمال الباردة (٣ اقدام) ، واجرينا التعديل الحسابي اللازم .

والامام الاعظم هي القرية الواقعة على بعد نصف فرسخ الى الشمال الغربي من بغداد ، على الضفة الشرقية من دجلة . واسمها الحقيقي Maadem (١١) ، وقد اعطي لها الاسم الآخر نسبة الى المسجد الذي دفن فيه ابو حنيفة ، احد علماء الاسلام ، والمسمى بالاعظم . ويتبع مذهبه غالبية اتراك الامبراطورية .

وعلى الجانب الآخر من دجلة ، وعلى بعد فرسخ من بغداد وربع الفرسخ من النهر ، تقع قرية موسى الكاظم ، المسماة كذلك ايضا بسبب الجامع الذي يضم رفات هذا الامام (المسلم)(١٢). فان موسى الكاظم(١٢) ينحدر من (سلالة) محمد (ص) من ابنته فاطمة زوج علي (رض) .

دجلة والملاحة فيه

ليس لبغداد ، كما قلنا ، سوى جسر قوارب يسحبونه ابان الفيضانات الشديدة . ولكن من الممكن في كل المواسم عبور النهر بواسطة قوارب خفيفة تسمى قففا مصنوعة من الخيزران او من الخوص ، وهي شبيهة بسلالنا ، ومطلية خارجيا بطبقة كثيفة من القار المخلوط بالتراب الذي يمنع الماء من الدخول . تسع ثمانية وحتى عشرة اشخاص . شكلها دائري ، وهي عميقة كثيرا . ولا تشتمل على شراع ، ولا مقود لها انما يستخدم لتسييرها مجذاف او مجذافان على شكل رفش يمسك به واحد او اثنان باليد . وقد يحدث مرارا أن يتخبط القارب او يدور اكثر من مرة حول نفسه ، سواء كان ذلك بسبب شكله الدائري ، ام بسبب نوعية قيادته ، بحيث لا يصل الركاب الى الضفة الاخرى دون انحراف ذي بال ، او بدون البقاء ربع ساعة على الاقل في المياه العميقة .

يعين نيبور لدجلة من ستمائة الى ستمائة وعشرين قدما عرضا . لكننا نظن بانه اكثر من ذلك ابان شدة المياه التي تكون في أواخر الخريف ، وبخاصة في الربيع ، اذ تختلط مياه الامطار في هذا الفصل الاخير في جزء من كردستان وبلاد ما بين

(١١) هكذا كتبها الرحالة الفرنسي .

(١٢) جاء في الاصل : المحمدي بدلا من المسلم .

(١٢) يشرح اوليفييه لفظة (الكاظم) بالتالم او المحتمل العذاب Patient بينما معنى الكلمة (الساكت او الحابس) .

النهرين مع المياه الصادرة عن ذوبان الثلوج في بلاد فارس وكردستان الاعلى وارمينيا واعالي بلاد ما بين النهرين . اما الزمن الذي يكون فيه دجلة منخفضا جدا فهو اواخر الصيف ومطلع الخريف ، لان السماء لا تمطر ابدا في هذه الارجاء قبل شهري برومير وفريمير(١٤) .

ان القوارب والسفن التي تمخر في النهر صعدا من البصرة حتى بغداد هي شبيهة بالتي في اوربا ، مغطاة بجملتها بطبقة كثيفة من القار المخلوط بقليل من التراب الطيني الذي يحافظ عليه وقتا طويلا ؛ ولا يسمح بدخول الماء ابدا . وحين تكون السفينة في حالة عدم الاستعمال يقلعون القار ويعرضونه لنار لطيفة تفصله عن التراب وتجعله يسيل في حوض خصيصا لاقتباله ؛ فيكون هكذا بنفس الجودة التي كان عليها لدى استعماله للمرة الاولى .

ويستخرج السكان هذا القار من اطراف هيت . فعلى بضعة فراسخ الى الغرب من هذه المدينة يوجد اهوار تعطي القار سنويا اذ تجعله الحرارة يخرج من احشاء الارض فيجمعه الاعراب في نهاية الصيف ويحملونه الى بغداد ، وهو بكميات كبيرة بحيث انه لا يستخدم للاغراض البحرية في بغداد والبصرة وحسب ، انما يطلون به ايضا خارج المجاري وغرف الحمامات ومغاسل المطبخ وكل الجوانب المعرضة لاستلام الماء بتواتر . ومن المحتمل بان اسوار بابل المشيدة بالطين كانت قد طليت بهذا القار ، وذلك في قسمها العلوي لصونها من تاثير الماء والهواء .

عدد السكان واحوالهم

يعتبر اهالي بغداد عدد سكان مدينتهم اكثر من مائة الف نسمة . غير ان روسو الذي هو منذ زمن وكيل العلاقات التجارية (الفرنسية) ، وليوني رجل الاعمال الايطالي الذي يسكن منذ اكثر من اربعين سنة في هذه الربوع ؛ ورئيس دير الكرمليين الذين تحدثنا اليهم ، لا يقدرونها باكثر من ثمانين الفا ، ويوزعونهم هكذا : خمسون الف عربي (مسلم) ؛ عشرون الف تركي بما في ذلك الحامية(١٥) وحرس الباشا، وحوالي الف كردي والف وخمسمائة مسيحي من الكلدان والارمن ، والفان وخمسمائة يهودي .

ويؤكدون بانه منذ تولي سليمان باشوية بغداد ازداد عدد السكان من ثلاثين الى اربعين الف نسمة ؛ من بينهم اثنا عشر او خمسة عشر الف فارسي ، هربوا من الاضطرابات والحروب الاهلية التي يتعرض لها وطنهم منذ اكثر من نصف قرن(١٦) . كذلك سكن فيها العديد من اليهود والارمن لاغراض تجارية مع تركيا والهند . فان الباشا يشجع التجارة بكل ما في وسعه ، كما سنذكر ادناه .

ان هذه المدينة التي كانت مدة زمن طويل مقرا للخلفاء ، والمرجع الرئيس لامبراطورية واسعة ، ومركزا للاسلام ، وملتقى العلماء والشعراء العرب والفرس ، لم يكن لها ان لا تحافظ على بعض آثار ذلك العمران ؛ والتفنن ، والتكالب وراء الملاهي التي تتميز بها العواصم الكبرى . وقد خيل الينا فعلا بان شعب بغداد هو اكثر عذوبة ، وان كبارهم اشد ثقافة ؛ وابدى لطفا ، وان التجار اقوى فاعلية وحرصا من تجار الامبراطورية الاخرين . كما ان التعصب الديني اخف وطأة فيها ، والحسد عنه اقل قسوة ووحشية .

النساء

ان النساء محصنات في حريمهن ؛ كما في المدن الاخرى ايضا ، اذ يبقين منعزلات عن الرجال . وهن محجبات تماما حين يخرجن ؛ الا انهن يتمتعن في منازلهن بحرية اكبر . فيتزاورن مرارا ، ويقمن الاعياد بكثرة ، ويسترسلن لانغام الموسيقى والرقص بشيء من الانطلاق .

النساء اللواتي ينتمين الى طبقة غنية جميلات عادة ، ورشاقتهن جيدة ، لان معظمهن من الامات الجيورجيات (الكرجيات) المشتريات بسعر مرتفع ؛ ولا يخلون من حيوية وثقافة . يسترسلن في الكلام ، لكنهن يتكلمن بكثير من الاناقة ، ولغتهن المعتادة التركية والعربية .

---

(١١) شهر Burmaire هو الثاني من التقويم الجمهوري ، يبدا في ٢٢ او ٢٣ تشرين الاول ، وينتهي في ٢٠ او ٢١ تشرين الثاني .

(١٥) وشهر Frimaire هو الثالث ، يبدا في ٢١ تشرين الثاني وينتهي في ٢٠ كانون الاول .

(١٥) انهم الينجرية او الينكجرية ، والمقصود بهم الانكشارية.

(١٦) نراها اشارة مهمة لشرح سبب هذا التزايد .

لا تتحجب نساء العوام في الشوارع الا من باب المظهر ، وغالبا ما يعفين انفسهن من ذلك . وهن ضعيفات عادة ، لاسميثات ؛ وقدهن رشيق، والراس بيضوي ، والانف جيد البروز ؛ وغالبا ما يكون صغيرا . الملامح اعتيادية المقاس ، والاعين كبيرة وسوداء ، اما البشرة فسمراء . سحنتهن جميلة جدا ، وتتغير قليلا بسبب الاسود الذي يضعنه على الحواجب وحول الاعين ؛ وكذلك بسبب اللون الازرق الذي يصبغن به الشفاه بنفس الطرق المستعملة من قبل سكان جميع ضفاف البحر المتوسط . ويضعن حلقة ذهبية في احد المنخرين ، ويرتدين قليلا من الثياب ، اذ ليس لهن عادة سوى قميص ازرق على الجسم ؛ ومنديل حول الراس ، ويمشين دائما حفاة . وهن لا يتكلمن الا العربية .

تستخدم الفتيات منهن افخر اقمشة الهند ، ويستعملن بمناسبات زينتهن الكبرى قبعة كبيرة للشعر ، عالية ، مسطحة ودائرية من الامام ، ومائلة الى الوراء قليلا ، تعلوها مناديل موزلين منقوش ومطرز بالذهب او بالفضة . وقد تكون مزينة احيانا بالماس او بحجارة ثمينة اخرى .

اما في المناسبات البسيطة فلهن قبعة سوداء كبيرة مخملية مائلة الى الخلف ، تنتهي بشرابات من حرير او من ذهب ؛ ان كانت من ذهب فانها مكسوة بشريط . وتثبت القبعة هذه في الراس بواسطة شال كشميري .

الشعر منضد بعدة ضفائر متدلية . وهو مقصوص من امام الراس ، ويتساقط حتى اسفل الجبين . يحيط بالرقبة منديل من قماش منقوش او مزين بعقد جمان ، او من اللؤلؤ ؛ او من الزمرد .

السراويل عريضة ومصنوعة من اقمشة مطرزة في الهند . والقميص الذي يعلوها من الموزلين ، مطرز بخيط حريري ذهبي اللون ؛ ومفتوح من الامام كقميص الاوربيين . والثوب لا يغطي القميص من جهة الامام ، فهو لا يلف سوى الفخذين ، كما انه مثبت بكلاب . وفوق الثوب رداء ضيق يغطي الظهر فقط ؛ ولا ينزل حتى اسفل الثوب .

نساء بغداد حفاة في منازلهن ، ولا يرتدين الخفاف الا لدى الخروج .

الحناء وصبغات اخرى

ايدي نساء بغداد وارجلهن مصبوغة بلون برتقالي ، واظافرهن مصبوغة بالاسود . كما انهن يصبغن شعرهن ايضا باللون عينه .

اليك طريقة استحضار ذلك :

معجون لصبغ الاظافر بالاسود

خذ مسحوق المرتك (اوكسيد الرصاص) مقدار درهم(١٧) ومن الجير (الكلس) المنطفىء ست دراهم ومن الصودة ٣ دراهم .

اسحق الجميع ، واجعل منه عجينة بواسطة الماء . ضعه على الاظافر ؛ وبللها حتى تيبس عليها، وذلك سبعا او ثماني مرات . وبعد مدة ربع ساعة اغسل الظفر وافركه بقليل من الزيت لكي يغدو اكثر لمعانا كما لتركيز مفعول المعجون الذي وضعته .

معجون لصبغ الايادي والارجل بالاحمر البرتقالي او بالاسود البنفسجي

اسحق اوراق الحناء ، وبلل هذا المسحوق بالماء ، ثم ضعه على طرف اليد او الرجل التي تريد ان تصبغها . وينبغي ترك ذلك مدة ثمان او عشر ساعات متتالية .

اما اذا اردت ان تحصل على (لون) اسود بنفسجي ؛ فعليك بعد رفع الحناء ؛ وقبل غسل (اليد او الرجل) ان تضع عوضا عن الحناء مسحوق اوراق النيلة ، وتبللها بالماء .

معجون لتسوية الشعر

خذ من العفص الصلب والثقيل مقدار ٢٦ درهما ومن الاثمد مقدار اربع دراهم ومن القرنفل ١٢ درهما ومن الخل الجيد ثلاثة اقداح .

---

(١٧) لا يعين اوليفييه اسما لقياس المقادير ، واعتاد ان تكون بالدراهم .

اكسر العفص ، واغله بقليل من زيت الزيتون ، قشر واسحق الجوز معه ، والاثمد والقرنفل ، وانخل الجميع .

ضع هذا المسحوق في ثلاثة اقداح خل ، ثم ضعه على نار هادئة حتى يتركز المجون .

(طريقة) الاستعمال

اغسل مساء الشعر جيدا بالماء الحار والصابون ، وامسحه جيدا بقطعة قماش . ثم ادهن خصلة بالمجون اعلاه . وعليك ان تغطي الراس ، ثم تغسله صباح اليوم التالي بالماء والصابون مرة ثانية ، وتمسحه كما في العشية ، فان الشعر يكون اسود ويظل هكذا مدة طويلة .

ان هذا المجون لا يصلح للنساء وحسب ، بل ان الرجال المتقدمين في السن ، وحتى الشباب يصبغون به من وقت لاخر لحاهم لكي يبدو مظهرهم اكثر شبابا ، ومحياهم شديد النشاط .

وهو استعمال شائع عادة في تركيا ، وبخاصة في بغداد وفارس . فاننا لم نر اطلاقا شيخا ذا لحية بيضاء ، ولا شابا ذا لحية حمراء او شقراء .

ولابراز جمالهم ، فان افراد كلا الجنسين يضعون يوما على الاهداب والحواجب معجونا اسود (الاثمد) . وينثر النساء في فارس على الاهداب الاسود الذي يضعنه على حافة الجبين ، وذلك للحصول على اعين اكبر سعة ، ويرغبن ان تشكل الاجفان قوسين سوداوين كبيرين ومتصلين .

تبدو النساء وهن مصبوغات بهذا الشكل اكثر جمالا ، بالنسبة للاشخاص الذين يرونهن اعتياديا هكذا ، ولهم هم ايضا وجه ملطخ بالاسود. بينما نستطيع القول ان الامر اولد عندنا مفعولا مماكسا نظرا لتعودنا على جمال الاوربيات الطبيعي . ان تلك الاهداب السوداء الموحدة في اعلى الانف ، وذاك سواد الحاجب الممتد في الاطراف ، تعطي للمراة سحنة قاسية ، مشوشة ، متوحشة ، وبخاصة حين تدلجها بالابيض وتكون الامين زرقاء .

مناخ بغداد

لدى وصولنا بغداد في مطلع فلوريال(١٨) ، لم يكن مقياس الحرارة الذي لصديقي رامبر يسجل سوى ١٨ درجة ، لكنها اصبحت في الايام التالية ٢١ و ٢٢ درجة ، وصعدت تباعا حتى وصلت ٢٦، ثم غدت ٣٠و٣١ فيواسط بريريال(١٩) اثر ريح شرقية خفيفة حملت الينا كمية كبيرة من الجراد .

وتشتد الحرارة اكثر ابان الصيف ، وتهب الرياح عادة من الشمال الغربي ، فتجتاز اراضي خاوية جرداء ، حتى تصل سعيرا الى هذه الارجاء . ويرتفع مقياس الحرارة ظهرا الى درجة ٣٣ أو ٣٤ او ٣٥ ، وتظل كذلك حتى المساء ، فتشبه بغداد حينذاك صحراء مقفرة ، بحيث لا تلقى احدا في الشوارع ، وتغلق الاسواق ايضا منذ الساعة العاشرة او الحادية عشرة صباحا وحتى مغيب الشمس ، ويخلد الناس الى السراديب حيث لا تصل الحرارة ، كما قلنا ، اكثر من ٢٥ او ٢٦ درجة . ولكن بما ان الهواء يتجدد فيها بعسر ، يزداد التنفس بحيث يحتاج الى جرعة ماء كل نصف ساعة تقريبا .

تعقب هذه الحرارة المفرطة في النهار رطوبة في الليل هي السبب في سحر ليالي بغداد الذي يعتز به اهاليها ، فانهم منذ غياب الشمس يخرجون من مخابئهم الى سطوح بيوتهم حاملين عشاءهم ، فيفرشون المنام . وتبدا اوان الزيارات وساعات الانس ، فيأتي الاغنياء براقصين وموسيقيين ومرتلين مهنتهم سرد حكايات على غرار الف ليلة وليلة .

تنخفض الحرارة في الاعتدال الخريفي ، وتغدو الرياح متقلبة ، وتظل الرياح ، رغم ذلك ، حارة اثناء النهار اذا ما هبت من جهة الشمال ، المهم متى تكون جبال كردستان وفارس قد

---

(١٨) شهر Floréal هو الثامن ، يبدا في ٢٠ او ٢١ نيسان ، وينتهي في ١٩ او ٢٠ ايار .

(١٩) شهر Prairial هو التاسع ، يبدا في ٢٠ ايار وينتهي في ١٨ حزيران .

تغطت بالثلوج ، او المناطق المنخفضة من بلاد آشور قد ترطبت بالامطار . ولدى حدوث سكون (هواء) في شهر فندمير(٢٠) ، وهو ما يحدث غالبا ، فان الحرارة لا تطاق عندئذ ، رغم ان المقياس لا يسجل اكثر من ٢٨ او ٣٠ درجة .

ولا يشعر المرء بالبرد اثناء النهار حتى اواخر فريمير(٢١) ، وتكون السماء صافية دائما ، والرياح متقلبة جدا ، والرياح الشرقية والشمالية والشمالية الغربية جافة وعليلة ، لكنها ليست باردة ، اما الرياح الغربية فرطبة قليلا ، وهي هذه التي تحمل الامطار احيانا الى بغداد ، بينما يحدث الامر بكثرة في اطراف الموصل والجزء الاوسط والاعلى من بلاد ما بين النهرين .

تكون ريح الجنوب نادرة في اواخر الخريف ومطلع الشتاء ، وحين تكون فهي ليست حارة جدا ولا طويلة الامد ، اذ انه منذ اواخر فندمير(٢٢) ينخفض مقياس الحرارة من ٢٤ الى ٢٠ ومن ١٨ الى ١٥ . لقد لاحظنا انها في نيفوز(٢٣) انخفضت اثناء النهار الى ٨ و ١٠ ، وبلغت احيانا ٤ و ٥ ، بل شوهد الصفر او درجة واحدة ابان الليل ، بحيث ان الماء الذي في فناء المنازل كان يرى صباحا مغطى بطبقة جليدية سمكها خطان او ثلاثة(٢٤) .

ان مناخ بغداد ، كما يلاحظ ، هو اشد حرارة من مناخ صعيد مصر ، لان رياح البحر الابيض المتوسط التي قلنا سابقا انها تعصف النهار كله دون انقطاع تصل الى هذه البلاد سعيرا ، اذ انها تسخن حتما لدى اجتيازها ١٥٠ فرسخا من اراض غير مزروعة وملتهبة باشعة الشمس .

والبصرة ، الواقعة على بعد ٨٠ فرسخا الى الجنوب ، اقل حرارة من بغداد ، لانها تفد رطبة بفضل ريح جنوبية شرقية تهب من الخليج ، ولا يرتفع مقياس الحرارة في البصرة الى اكثر من ٣٢ درجة ، ومع ذلك فان حر بغداد الجاف والمحرق اكثر احتمالا رغم كونه اعلى من درجة حرارة البصرة الرطبة ، اذ يحتفظ الهواء في بغداد بلزوجة ، بحيث اننا شعرنا اكثر من مرة بان شاهيتنا اكبر ، واننا اقل تعرضا للتعب ، واقل تألما بدرجة حرارة بلغت ٣٠ و ٣٢ وحتى ٣٤ في جو رياح شمالية غربية ، اكثر مما في جو رياح جنوبية او جنوبية شرقية ، ولو ان الحرارة لم تبلغ اكثر من ٢٦ او ٢٨ او ٣٠ . ومعلوم ان حرارة مهما كانت شديدة تحتمل في جميع الحالات بسهولة متى كانت مشفوعة بهبوب ريح اثر سرعة من احتمال حرارة معتدلة ساكنة الهواء .

اما الشتاء فهو اشد بردا ، لان الرياح التي تهب من جبال كردستان وفارس الثلجية ، رغم بعدها ، تصل بغداد باردة ، بينما نجد الرياح التي تهب في مصر من الشمال تفقد حدتها لدى اجتيازها البحر المتوسط . لذلك فان اشجار الحناء والموز ومعظم الاشجار الغريبة التي لاحظنا نموها في مصر ، لا تستطيع النمو في بغداد ، فهي تهلك في الليالي اذ تنخفض فيها درجة الحرارة الى اثنتين تحت الصفر . لكن برودة كهذه لا تتمكن من القضاء على اشجار الحمضيات المزروعة فيها ، واقل من ذلك على النخيل الذي يبدو انه يستحب مناخا كهذا مفضلا اياه على مناخ مصر .

ان الحرارة الشديدة هذه ابان النهار ، وبرودة الليالي لا تمنعان بغداد من ان تنعم بجميع فوائد مناخ صحي جدا ، فانها تقع في سهل واسع ، تصيبها الرياح في الفصول كلها ، فلا تتكون فيها مواطن اوبئة . وماء دجلة الوحيد الصالح للشرب صحي جدا . والامطار فيها نادرة ، حتى في فصل الشتاء . اما السماء فصافية دوما تقريبا . والمناخ في الصيف خالص الى درجة ان المرء لا يشعر فيه باية رطوبة ولا بالندى الا على مقربة كبيرة جدا من النهر . فلو كانت الاراضي المحيطة بهذه المدينة مزروعة باجمعها ، ولو جرت فيها مياه دجلة

---

(٢٠) شهر Vendémiaire هو الشهر الاول ، يبدا في ٢٢ ايلول وينتهي في ٢١ تشرين الاول .

(٢٢) انظر الهامش ٢٠

(٢٣) شهر Nivôse هو الرابع في يبدا في ٢١ كانون الاول وينتهي في ١٩ كانون الثاني .

(٢٤) يستعمل اوليفييه هذا المقياس الذي هو ١٢/١ من الاصبع الابهام .

والفرات ، وتم توزيعها على قنوات ، ثم جرى حملها بعيدا لغرض توزيعها على الحقول التي يراد سقيها ، ولم يسمح لها بتشكيل أهوار ومستنقعات تفسد الهواء قليلا على بعد مسافات من المدينة ، فاننا نعتقد بانه لن تكون منطقة اخرى في الارض اكثر صحية منها ، وانجع حيوية واوفر غنى ، واكثر انتاجا واشد ازدهارا .

يقال بان التنجيم ولد في هذه البلاد ، ونحن نحمل ذلك محمل التصديق ، لان السكان يقضون على سطوح بيوتهم اشهرا عديدة كل سنة ، والمناخ خالص في المواسم كلها ، والسماء صافية بحيث ترى النجوم متلالئة باشعة لا تعرف في اوربا . فليس من الغرابة ان ينشأ هذا العلم في بلد تتجه فيه كل الانظار نحو السماء ، وحيث الديانة نفسها كانت تستخدمه ، فان الكلدانيين قد استرسلوا في علم له سحره بالنسبة للبدائيين ، وسبقوهم بفضل غريزة طبيعية لدى المرء ، هذا اذا لم يكن ثمة ايضا من فوائد حملتهم اليه مما اجتنوه من هذا العلم في حقل الزراعة ايضا .

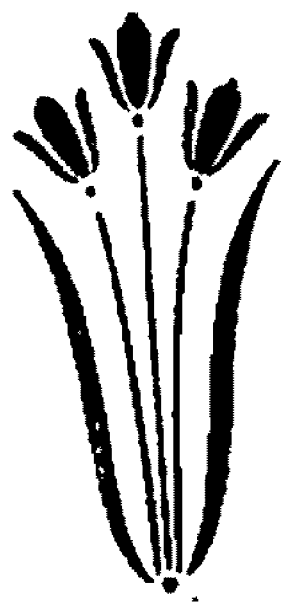

WWW.ATTAWEEL.COM